اسحاق موسى الحسيني: الذات المجتهدة في فلسفة الإختصاص

فيصل درّاج

«النص الذي لا يلتفت إلى سياقه تُشجُّ رأسه دون أن يدري»
لوي آلتوسير

يعطي الدكتور اسحاق موسى الحسيني، الذي توفي في مدينة القدس عام ١٩٩١ (ولد عام ١٩٠٤)، صورة نموذجية عن المتعلّم الفلسطيني في شرط تاريخي محاصر. تعلّم في فلسطين وهي محاصرة بالإستعمار الإنجليزي والحركة الصهيونية، وتابع تحصيله العلمي في مصر وهي خاضعة للإستعمار ذاته ومتمردة عليه، وأكمل تأهيله الأكاديمي في لندن، وما زال أسيادها يستعمرون فلسطين ومصر معاً. وإذا كانت فلسطين، في النصف الأول من هذا القرن، قد عرفت مثقفين تعلّموا من الحياة أكثر ممّا تعلموا من الكتب، فإن الدكتور الحسيني، وقد اختلف إلى مدارس وجامعات عربية وأوروبية مختلفة، يمثّل صورة المتعلّم الأكاديمي، الذي صقلته الجامعات، على مقربة من الكتب وعلى مبعدة عن ضجيج الحياة. وهذا الفرق، بين الجامعة والحياة، يضع مسافة بين الحسيني، من ناحية، وخليل السكاكيني ونجيب نصّار وعزة دروزة، من ناحية ثانية، تساوي المسافة بين المتعلّم والمثقف، أو بين المثقف والأكاديمي المكتفي باختصاصه.

استقى الحسيني، وهو الطالب النجيب الذي أدمن التفوق والمثابرة، ملامحه من كتب الجامعة ومن السياق الذي بناها أولاً. ولم يكن في كتب الجامعة إلا ما فرضه السياق

وارتضى به، ولم يكن في السياق إلا ما شاءه سادة لندن، رغم ثورات المضطهدين المستمرة. وكانت «الإدارة» الكفؤة والمحايدة، كما أشار أنور عبد الملك في كتابه «دراسات في الثقافة الوطنية»، هي هدف الجامعة وغاية «الأسياد»، الذين يخلقون السياق ويجدّدونه. ولذلك كان على الجامعة، أو على الكلية والمدرسة، كما ألمح إحسان عباس في مذكراته، أن تقيم جدراناً عالية بين إجابات الكتب وأسئلة الحياة، كما لو كان على المدرسة المبتسرة أن تؤبّد السياق وأن تعتقل نبض الحياة المتأبّي على الاعتقال. ولذلك كان على الحسيني، الذي ألقى محاضرات عن خليل السكاكيني في القاهرة في عامي ١٩٥٦ – ١٩٥٧، أن يقبل بـ «المدرسة المبتسرة» التي يتمرد عليها، إلى أن راض نفسه على ما يشبع طموحه الأكاديمي، وهو ينصت إلى تعاليم المستشرق جب، الذي لقنه العلم وفضائل المستشرقين. ولعل إعجاب الحسيني بأستاذه المستشرق، وهو طالب في لندن، هو الذي حمله على وضع كتاب صغير، عنوانه: «علماء المشرقيات في إنكلترا»، ظهر في القدس عام ١٩٤٠ وعن «المطبعة التجارية»، يعدّد فيه فضائل هؤلاء العلماء الكبار، الذين إن ارتكبوا خطأ، جاء «عن غير قصد ولا يجوز أن يجرّح ويقذف»[1].

يكتب الحسيني، وبعد ضياع فلسطين بأربع سنوات، وفي الجزء الأول من مجلة «الأديب» البيروتية: «يا إلهي! فكرت أن أبرأ من بني قومي، فوجدت أني أبرأ من نفسي، وعندئذ عزمت على أن أحمل ذنوبهم بشجاعة». لا يقوم الإشكال في الذنوب، فربما لم يقترف الحسيني ذنباً قط، بل في سياق تعليمي محاصَر، لا يحرّر التلميذ من الجهل إلا إذا كبَّله، ولا يعلّمه إلا إذا امتنع عن طرح الأسئلة المفيدة. وهذا السياق، المنسوج من مشيئة إنجليزية وغايات صهيونية، هو الذي حاصر التلميذ النجيب الذي كانه اسحاق الحسيني، وهو الذي حدّد الفرق بين المتعلّم المقدسي والمثقف الذي طار بأجنحته خليل السكاكيني.

إذا كان الزمن ما قبل الحداثي قد أنتج مقولة الكاتب، التي ترى الكتابة علاقة من علاقات السلطة، في انتظار المثقف الذي يجيء مع المجتمع المدني الحديث، فإن زمن السيطرة الإستعمارية اقترح، وفي شروط معينة، مقولة هجينة هي: المتعلّم. والمقولة الأخيرة تردّ إلى «الإدارة»، التي تعيّن المعرفة مُلْكية خاصة ومستوى اجتماعياً في آن، واختصاصاً ضيّقاً مرجعه فيه ولا ينفتح على خارجَه. وبسبب هذا ينفتح خليل السكاكيني، الذي لم يظفر بتحصيل أكاديمي، على أسئلة الحياة العامة، ويؤكد الثقافة شأناً عاماً، بعيداً عن الإختصاص. وبسبب هذا أيضاً، لا يلتفت الحسيني، بعد تحصيله الأكاديمي، إلى أسئلة الآخرين، وهو الذي أقبل عليها، بحماس كبير، حين كان في بداية دراسته. وسيتمسّك الحسيني بفلسفة المتعلّم المختص، بعد عقود لاحقة، أطاحت به من بيته الجميل في القدس الى دروب المنفى. كأن يكتب في «أزمة الفكر العربي»: «لقد ظهر وعي قومي وظهرت

حركات قومية في جميع البلدان العربية، ولكنها كانت حركات سياسية محضاً لا تعتمد على أصول علمية صحيحة.. ص: ١٢٣»، و: «الحياة النامية تولّد المشاكل، الواحدة تلو الأخرى، إلى غير نهاية. والعقول المدبّرة المفكّرة تبدع حلاً بعد الآخر إلى غير نهاية أيضاً... ص: ٦». وفي الحالين، واتكاءً على إشكال الكتاب كله، يقدم الحسيني منظوراً بالغ الاختزال، يضع السياسة فوق الحياة، والعلم فوق السياسة، و«العقول المدبّرة» فوق العلم. غير أن مديح العلم الجميل، الذي يسوقه الحسيني في صفحات متعانقة، لا يلبث أن يضطرب كثيراً، لأنه علْمٌ مشتق من الكتب ومن اجتهاد المختصين الكبار، بعيداً عن نبض الحياة والإرادة الشَعبية الطليقة، التي تصوغ الساسة والسياسة، وتردّ على اضطراب الحياة بوعي نجيب.

كل ما في مسار الحسيني يعبّر عن فكر طموح وذاتية أكثر طموحاً. درس في القدس في المدرسة «الرشيدية»، وانتقل منها إلى «الكلية الصلاحية»، ليذهب منها، وبعد عامين، إلى مدرسة الفرير، لينتهي إلى الكلية الإنجليزية، التي زوّدته بشهادة الدراسة الثانوية، التي حملته إلى الجامعة الأميركية في القاهرة. وبعد أن حصل، وفي مدة سنتين، على شهادة دبلوم في الصحافة، عاد إلى القدس معلماً في المدرسة التي كان فيها تلميذاً، أي «الرشيدية». غير أن الطالب الطموح ما لبث أن عاد إلى القاهرة، ولمدة أربع سنوات، ليحصل على درجة «الليسانس» في اللغة العربية، وليلتقي بعقول ممتازة مثل الدكتور طه حسين وعلي عبد الرازق، وهو ما جعله يعجب بحزب «الأحرار الدستوريين»، الذي اختار الدفاع عن العقلانية والعلمانية قبل أي شيء آخر.

ولم يكتف الطالب المقدسي المجدّ بما تعلّمه في الجامعة المصرية، التي لم تكن تقبل من غير المصريينَ إلا من تفوّق منهم، بل آثر الإستمرار في الدرب الذي اختاره، متأثراً، ربما، بفكرة «الصفوة المتعلّمة»، التي جذبته إلى «الأحرار الدستوريين». ولذلك ذهب إلى «معهد الدراسات الشرقية» التابع لجامعة لندن في عام ١٩٢٩، وعاد في عام ١٩٣٤، وقد نال دبلوم مقارنة اللغات السامية ودكتوراه عن «ابن قتيبة»، في مائة صفحة تقريباً، تحت إشراف المستشرق جب، الذي سيزور فلسطين لاحقاً، ويرى إلى مدنها بصحبة تلميذه النجيب. وكان طبيعياً، بعد هذا المسار الأكاديمي، أن يجد لنفسه مكاناً واسعاً في الأجهزة التعليمية في فلسطين. فعاد إلى المدرسة الرشيدية، لفترة قصيرة، انتقل بعدها، ولمدة اثني عشر عاماً، إلى الكلية العربية، إلى أن أصبح مفتشاً أعلى للغة العربية في إدارة المعارف العامة.

وكما اختلف المتعلّم المقدسي إلى مؤسسات مختلفة، قبل الرحيل عن فلسطين، اختلف إلى مؤسسات أكثر بعد الرحيل عنها. فعمل في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي معهد

الدراسات العربية العالية، التابع للجامعة العربية في القاهرة، قبل أن يذهب، ولمدة خمس سنوات إلى جامعات كندية وأميركية، عاد بعدها، ولمدة أربع سنوات، إلى الجامعة الأميركية في القاهرة من جديد، منهياً حياة مؤسساتية حافلة. ولم تبخل الحياة على الأكاديمي الفلسطيني بالألقاب. فقد كان عضواً في أكثر من مجمع للغة العربية وللبحوث الإسلامية، وحاز على أكثر من لقب في أكثر من بلد عربي... . غير أن هذا المسار الجميل، وبسبب جماله، يطرح، وفي أكثر من اتجاه سؤال الفرق بين المتعلّم والمثقف، وسؤال الفرق بين المعرفة كشأن عام والمعرفة كاختصاص لطيف ضيق الجدران. والسؤال، في لجاجته، لا يتهم العلم الخالص و«العقول المدبِّرة»، بل يتهم الزمن الضيق، الذي يُجبر المتعلّم اللاجئ على استهلاك عقله الكبير في دروس ضيقة، إلى درجة تكاد أن تقيم بينه وبين قومه سداً، مثلما أشار الحسيني في جملة غامضة من مقاله: «الإلهيات»، المنشور في مجلة «الأديب»، عام ١٩٥٢.

ومهما تكن المواضيع التي قاربها الحسيني في حياته الطويلة، فإن مساره العلمي كله قائم على اختصاص مسكون بالمفارقة. فهو يرى في الإختصاص منظوراً للعالم، دون أن يطبّقه على الحقل الذي يعمل فيه، أي علم اللغة. ولذلك لم يترك وراءه، وبالمعنى الدقيق للكلمة، إلا كتاباً صغيراً هو موضوع دراسته العالية في لندن. ولأنه يأخذ بالاختصاص منظوراً مجرداً، فإنه سيقوم بتطبيقه على مواضيع لا تحتمل التجريد، منتهياً إلى دراسات تقول الشيء ونقيضه في آن. وهو ما فعله في كتابيه الرئيسيين وهما: «الإخوان المسلمون» و«أزمة الفكر العربي». وبهذا المعنى يكون الحسيني مجازاً لوعي بدأ محاصراً، وانتهى دون أن يفك الحصار الذي زامله طويلاً. وآية الوعي المحاصر الفصل بين الموضوع والمنظور، وبين المنظور والسياق، وبين السياق وجدوى الكتابة. وهذا كله يلقي على قارئه، المبهور بدأبه ونشاطه، أسئلة معقّدة، بدءاً من «دجاجة حكيمة» تتأمل السماء وهي تقف على الهاوية، وانتهاء بـ«قضايا عربية معاصرة»، الذي يكتفي بالوقوف أمام الكلمات، ولا يعبأ بمواضيعها المشخصة.

الوعي المطمئن في زمن مضطرب:

كتب جبرا ابراهيم جبرا في عام ١٩٤٦ رواية عنوانها: «صراخ في ليل طويل». والرواية، التي أثنى عليها الدكتور علي الراعي ثناء كبيراً، عمل حداثي بامتياز، تحتقب الرمز والأسطورة وتيار اللاوعي، أي كل ما كان غريباً عن الرواية العربية الوليدة في ذاك الزمان. غير أن رواية جبرا، وهي أولى روايته، تثير من الإعجاب بقدر ما تثير من الفضول، لأن حداثة الوعي اكتفت بالكتابة الروائية ولم تذهب في اتجاهات أخرى. يأتي

الإعجاب من قدرة شاب فلسطيني، أنهى دراسته في بريطانيا حديثاً، وعاد إلى وطنه المضطرب بثقافة زاخرة حديثة، تتيح له أن يكتب رواية وأن يبشّر بشكل من الكتابة الروائية مختلف. ويصدر الفضول عن وعي حديث يُبْصر شروط الكتابة ويضع شروط القراءة جانباً، لأن ما كتبه جبرا يبدأ بأصول الكتابة الروائية وينتهي بها. فالرواية، التي تتضمن الأمثولة وتفيض عليها، تتبنّى مكاناً مجرداً ضائع الاسم وتترك زمانها الواضح والغائم معلّقاً في الهواء. كما لو كان للشاب، المغتبط بتحصيله الأكاديمي، مكان خاص به، لا يلتفت إلى «مكان تاريخي» ملوّث، وزمان أكاديمي نظيف، يَزْوَرُّ عن أزمنة البشر العاديين المقبلين على كارثة.

عاد جبرا من بريطانيا، وهو العاشق لفلسطين وترابها وللقدس وأنوارها، مأخوذاً بكتاب «الغصن الذهبي» لفريزر، فانكبّ على ترجمة الكتاب، وعلى ترجمة رموزه إلى لغة الرواية في زمن، وإلى لغة الشعر في زمن لاحق. ولم يكن جبرا، الذي يعشق الوطن ويؤجّل النظر إلى مآسيه، حالة فريدة للمتعلّم الذي التبست عليه الدروب، أو حاصرته الإتجاهات في زمن عاصف بالغ الوعيد. فقَبْله، وبسنوات ثلاث، كتب متعلّم وطني، درس في بريطانيا بدوره، كتاباً عنوانه: «مذكرات دجاجة»، يوقظ الإعجاب والإرتباك في آن.

نشر الدكتور اسحاق موسى الحسيني «مذكرات دجاجة»، للمرة الأولى، في القاهرة في عام ١٩٤٣، أي بعد أربع سنوات من إخفاق الثورة الوطنية الكبرى، ١٩٣٦ – ١٩٣٩، التي شكّل إخفاقها جسراً واسعاً إلى هزيمة ١٩٤٨. حظيت «الرواية»، التي تستثير الإعجاب والفضول، بمقدمتين، الأولى بقلم طه حسين، والثانية بقلم مؤلفها، الذي حصل على درجة دكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٤. كتب طه حسين، وهو يقدّم الكتاب في سلسلة: «إقرأ»: «ورأينا – وما أعجب ما رأينا – أن دجاجة فلسطين تجد من حب الخير وبغض الشر والطموح إلى المثل العليا في العدل الإجتماعي وفي العدل الدولي وفي كرامة العروبة وحقها في عزة حديثة تلائم عزتها القديمة ما يجده كل عربي من أهل فلسطين بل من أهل الشرق العربي كله فليت شعري أيهما ترجم عن صاحبه....»[٢]. وإذا كان طه حسين قد عطف على حديث «دجاجة فلسطين الرحيمة» أشياء عن «العدل الدولي» وعن «كرامة العروبة»، فإن الدكتور الحسيني، الذي نشر في عام ١٩٢٤ مقالاً بعنوان: «الإستقلال أو الموت»، آثر اقتصاد الكلمة، مكتفياً بـ «جماليات» المثل العليا. فكتب في مقدمته القصيرة: «هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي، ووقع بينها وبيني ألفة ومحبة، .....، أما عنصر الخيال فيها فضئيل، وهو لا يعدو أن يكون تعليقاً على هامش الحياة أو تحليقاً في عالم المثل العليا». تكثّف الجملة الأخيرة هواجس هذا المتعلّم الوطني، الذي كتب جملة مقالات وطنية، وهو لم يبلغ العشرين بعد، في جريدة «فلسطين

اليافية»، ليس أشهرها «أكاذيب بعضها فوق بعض». تذهب هواجس المتعلّم، الذي وضع دكتوراة عن «ابن قتيبة» بإشراف المستشرق جب، في اتجاهين، يترافدان دون منازعة: يهمّش الاتجاه الأول الحياة، فلا يتبقى لها إلا تعليق يسير، أو بقايا من تعليق، ويحتفي الإتجاه الثاني بمجرّدات «المثل العليا»، التي تستأثر بالقول كله، وتعثر في نسيج القول البلاغي على مهدها الأثير.

تنطوي أمثولة الدكتور الحسيني، التي كلما اقتربت من كتاب «كليلة ودمنة» ابتعدت عنه، على خمسة عناصر، يتشكّل فيها خطاب أخلاقي فاضل، يحاور أثير الفضيلة ويضيق بالبشر، الذين يحدّدون معنى الفضيلة والرذيلة. والعنصر الأول، الذي يخفق مرتاحاً في صفحات كثيرة، قوامه: الفطرة الخيّرة، أو الأصل الذهبي للإنسان، الذي رأى النور ذهبياً، قبل أن يرمي عليه البشر بالرماد. شيء قريب من قول قَصَده هيكل في «زينب»، وإن كان هيكل يبحث عن الفضيلة في أرض البشر. تقول «دجاجة فلسطين الحكيمة»: «وإن أعجب لشيء فعجبي لهذه المخلوقات، التي لا تتوسّل بالحب لتتغلّب على ما ينشأ بينها من خلاف ونزاع وخصومات. فما من مشكلة تستطيع أن تثبت أمام الحب، بل لا يمكن أن توجد مشكلة في عالم الحب. فالحب والخلاف لا يجتمعان في صعيد واحد ...». فالحب هو الأصل، والكره انحراف عمّا لا يجب الإنحراف عنه، والحب – الأصل يهزم غيره، ولو بعد حين، لأن الأصل يحتجب ولا ينهزم.

يردّ الأصل الذهبي إلى البراءة والعفوية والغريزة الأولى، ويحيل، في تصوّره النظري المحايث له، على مستقبل هو صورة عن ماضيه الأول، ذلك أن الأصل لا بداية له ولا نهاية. وبما أن الأصل هو الحب، وكل ما عانده شذوذ وانحراف، فإن الأصل، الذي لا يغيب، يُحِبُّ بحُبِّ الشذوذ الذي تلاه، مستأنفاً الحب، الذي كان، الموزّع على الماضي وعلى المستقبَل، الَذي هو امتداد له وصورة عنه. وبسبب هذا، وهنا يحضر العنصر الثاني، يكون التفاؤل عنصراً داخلياً في فلسفة الأصل، طالما أن الجميل الآتي، لزوماً، امتداد لجميل سبق. ولهذا تقول «دجاجة فلسطين»: «ولكن الخلق محرومون من عقولهم وقلوبهم، وكأنهم لا يعيشون إلا بمعدهم وأجسامهم. وعندما يعرض لهم ما يغذّي أجسامهم يضيعون عقولهم وقلوبهم. ونحن اليوم قد برئنا من هذا جميعاً بعد أن أخذنا نحيا حياة جديدة، قائمة على الحب الخالص....». تردّ «نحن اليوم»، الكلمتان اللتان لا زَمَنَ لهما، إلى «الحب الخالص»، الذي لا زمن له، الذي هو «زمن المثل العليا»، الذي يوازي التاريخ ولا يلتقي به أبداً.

تبدأ «دجاجة» الدكتور الحسيني بـ«زمن الأصل» وتشتق منه، دون أن تغادره، «زمن التفاؤل»، الذي يرى الخير المنتصر قبل أن يرى الشر الذي يحاربه. بل أن «زمن الأصل»، أي زمن الطبيعة الإنسانية الأولى، التي خلقها الله وأحسن خلقها، لا يحتاج إلى رؤية

الشر وإلى التقاط ملامحه، طالما أن الزمن السويّ الأول، لا يحقق معناه، وهو مليء بالمعنى، إلا إذا اجتاح الأزمنة المتدهورة، التي تلته، وهزمها. اتكاءً على العنصرين السابقين وإيماناً بهما، تصل «الدجاجة الحكيمة» إلى فضيلتها الثالثة، أي العنصر الثالث الذي يوافق حكمتها «العجيبة»، والذي يتمثل، من غير انزياح، بعنصر: القدَرية. فما شاءه الله كان، وما كان، شاءه الله قبل أن يكون، وما حصل قائم قبل حصوله، وما جاء متحقق قبل أن يُرى، وما يُرى لا يملك من أمر بصره شيئاً، فكيف تُفصح «الدجاجة العجيبة» عن حكمتها الأكثر عجباً؟

تقول «دجاجة» الحسيني: «عجيب أمر هذه الدنيا. ففي يوم يمتلكنا الانقباض والضجر وفي آخر يشيع في قلوبنا الطرب والفرح. ترى ما سرّ هذين الشعورين؟ فهل النور والدفء وسيلة من وسائل البهجة والسرور؟ وهل البرد والظلام وسيلة من وسائل الانقباض والضيق؟ إن كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون الخالق قدّر للخلق أن ينقبضوا يوماً، ليبتهجوا يوماً آخر ....»، ثم تفصح أكثر فتقول: «ما الذي يعنيني من هذه المتناقضات وهذه النظرات؟ ألست مخلوقاً مسيّراً لا حول له ولا طول؟ ولكن عقلي لجوج في التفكير والتأملات. فلو قدّر لي أن ألجمه بلجام القدر لآب إلى رشده واستقرّ حيث قُدّر له أن يستقر»، «وما أدري إلى حدّ يسأل المخلوق عن خلقه وطبيعته، ما دام بريئاً من كل قدرة على تكوين نفسه بنفسه، وما دام مدفوعاً إلى ما ركّب فيه دفعاً لا قدرة له عليه .....». لا شيء يمكن فعله ما دام الله قد كتب مصائر البشر قبل أن يدفع بهم إلى الحياة، الأمر الذي يجعل من فضول العقل لجاجة لا تقبل بها النفس المؤمنة، والمطمئنة إلى إيمانها بعجز الإنسان عن تبديل حياته.

يضع الدكتور الحسيني، تلميذ المستشرق المعروف هـ. أ. جب، حكمته على لسان دجاجته الحكيمة، التي أُعجب بحكمتها الدكتور طه حسين أيضاً. ولذلك تنتقل راضية من كون إلى آخر، رغم المصائب التي تنزل عليها، بدءاً من فقدان المكان الأليف وصولاً إلى فقد الزميل الأليف، كما لو كانت الدجاجة، التي ارتضت بأوامر القضاء والقدر، قد اتخذت من الإيمان وطناً يعوّضها عن الوطن – المكان وعن كل وطن آخر له صفة المكان المتدنيّة. تهجس الدجاجة، وقد غمرتها قدَرية محمّلة بزهد شديد، بثنائية الروح والجسد، إذ الروح فضاء مقدّس للمثل العليا، وإذ الجسد وطن مطروق والوطن جسد مسكون بالفناء: «هل يفطن المخلوق في أثناء حياته إلى أن جميع ما يفتخر به من زهو وقوة وسلطان، وما يزهى به من ملك وجاه، وما يعتز به من أصحاب وأحباب، أن ذلك جميعه لا يغنيه في ساعة ما فتيلاً، وأن جميع ذلك يعود في ساعة ما إلى العدم؟ إن ما يفتخر ويعتز ويزهى به المخلوق يسقط معه، كما يسقط الريش الواحدة تلو الأخرى، فيعود كما خلق حفنة من

تراب تذوب كما يذوب الملح مع تعاقب الأيام. أعجب للمخلوق كيف ينسى وهو يذكَّر كل يوم بتلك الساعة الرهيبة بما يرى من أموات، وما يسمع من أصوات ناعيات».

تعطي الدجاجة، التي قامت بينها وبين الدكتور اسحاق «ألفة ومحبة»، قولها واضحاً وباتراً ومفعماً بالصفاء: إن كان الزوال مصير الأشياء التي يحتفل بها الإنسان، فعلى الإنسان أن يحتفي بما لا يزول، أي بـ «المثل العليا»، وهي العنصر الرابع، التي تتفوق على المحسوس، بشراً كان أم رغيفاً أم مكاناً ولد المخلوق فيه وولد فيه أيضاً من ينتسب إليهم. ولذلك تتوجّه «دجاجة الدكتور» إلى فراخ يتنازعون قطعة من الأرض، طالبة من صاحب الأرض أن يتنازل عن حقه لقادم جديد، لأن في الحياة ما هو أثمن وأسمى من مكان يؤدي إلى الفتنة: «قلت لهم: ألا تريدون أن يحتكم الحق في قضيتكم دون القوة. قالوا: نعم. قلت: إذن لا ينبغي أن تلتجئوا إلى القوة. قال الزعيم: وإذن ماذا نفعل؟ قلت: إذن ليس لكم إلا أن تنتشروا في هذه الأرض، وتبشّروا الخلق بالخضوع للحق وحده، وتقنعوا الباغي بأن بغيه يُرديه. وعندئذ تحلّون قضية عامة إنما قضيتكم جزء منها. ليذهب كل واحد منكم إلى بقعة من بقاع الأَرض وليوقف نفسه على نشر العدل والمساواة والمحبة بين الخلق جميعاً ...».

إن كان العقل، في علاقته بالنفس المطمئنة، لجاجة نافلة، فإن لجوء الكائن إلى القوة، في الدفاع عن أرضه، لجاجة أشدّ فظاظة. كأنما العقل وجه من وجوه الأرض، وكأن العقل والأرض وجهان لماديّة ثقيلة غريبة عن الروح، والروح غريبة عنها، لأن الروح، وقد روّعها صوت العدم، تقول بجميع الخير، وتحلم بخير الجميع، على مبعدة عن عقل لجوج يعترف بفضيلة المكان ويحتكم الى القوة في الدفاع عنه. تحمل «الدجاجة» حكمة صاحبها، مستنجدة بزمن الأصل الذي لا يخذل صاحبه، قائلة بصوت معمور بالإيمان: «هيا انبعثوا في الأرض». ولعل زمن الأصل، الذي تتسلّح به «الدجاجة المؤمنة» ويمدّها بالقوة، هو الذي يجعلها تودّع «المنتشرين في جهات المعمورة» قائلة: «إلى اللقاء، إلى اللقاء»، في انتظار الزمن الأثيري، الذي يتوزع فيه الخير على الجميع، ويدعو فيه الجميع الى خير الجميع.

يتصل العنصر الخامس بالأسلوب، الذي حدّثت به الدجاجة، أو حدّث عنها. إن كان النثر، وهو لا ينفصل عن مادية العلاقات اليومية، يتكون في حوارية العلاقات بين كلمات ومواضيع قابلة للتحديد، منتجاً معنى يضيء الكلمات والمواضيع من جديد، فإن الخطاب الأخلاقي، الذي يظفر بالكلمات ويخطئ مواضيعها، ينتج كتابة بلاغية خاصة به، تحتفل بالإيقاع ولا تكترث بالمعنى. ولذلك تتراكم الكلمات فوق الكلمات قاصدة الإيقاع، كما لو كان الإيقاع هو المعنى الوحيد، بقدر ما هو الحاضنة التي تمدّ الكلمات بضمان لا وجود له

خارج الكلمات. ولعل العلاقة بين الخطاب الأخلاقي، وهو تجريد فكري لا تحديد فيه، والأسلوب البلاغي، وهو كتابة شكلانية، هو ما يختصر الكلمات إلى إشارات متراصفة تائهة الموضوع. فالتصور الأخلاقي للعالم، وهو تصوّر شفاف معدود المقولات، لا يستوي إلا بتراكم كلامي متواتر يخطئ الكيف المفهومي الذي يدور حوله، لأنه غير موجود أصلاً. تقول «دجاجة الكاتب»: «كان الشراب يلعب برؤوسنا، فينقلنا إلى عالم الأحلام. فما نرى إلا أرواحاً كالملائكة تحيط بنا وتأخذ بأيدينا مراقصة مضاحكة في مؤانسة لا حدّ لها. وكانت الأرواح تتراءى لنا كأنها متزينة بأحسن زينة، وتظهر من أجسامها ما يسلب عقولنا ويدفعنا إلى الإمعان في اللهو والإستمتاع..». تأتي كلمة «الشراب» واضحة وتسقط في الضباب، ذلك أن أثر الشراب، في البلاغة الموروثة، مساوٍ للملائكة المراقصة وللأرواح المتبرّجة، أي أن أثر الشراب هو أثر الكلام عن الشراب، علىً مبعدة من الشراب الحقيقي الذي لا وجود له. وبسبب هذا، يتوحّد الشراب والأحلام والملائكة والأرواح في فضاء أثيري، يوجد في البلاغة ولا وجود له في خارجها.

تُغوي أمثولة الدكتور اسحاق موسى الحسيني، الذي انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة في عام ١٩٦١، بقراءة مبتسرة وظالمة، ترى في الأمثولة دعوة إلى الاستسلام، وفي كاتبها مبشّراً بالهزيمة وبالتخلي عن الأرض. وهذه القراءة لا معنى لها، لأن فلسطين قائمة في هموم الحسيني، الذي قصد حلب بعد ضياع فلسطين، والذي رجع إلى القدس بعد هزيمة حزيران الشهيرة بست سنوات. كأن هذا المتعلّم، الذي ولد في القدس عام ١٩٠٤، آثر الموت حيث ولد، بعد أن عمل في القاهرة وبيروت وكندا، وبعد أن قاسَ المسافة بين الوطن والمنفى. ولأن «مذكرات دجاجة»، وقد عُطفت على سياقها، توحي بقراءة لا عدالة فيها، ترتبط بسياق لاحق، فقد قام صاحبهاَ بإيضاح موقفه وبالدفاع عن «دجاجته» حين قال: «الكتاب ثمرة تأمل في المجتمع زمن الانتداب، والصراع بين القيم الخلقية والاجتماعية»، خاصة أن زمن الكتابة كان خاضعاً لـ«رقابة صارمة»، ممّا جعل «الأمثولة» الشكل الأدبي الأكثر مواءمة لمواجهة زمن قليل الحرية. بل أن الكتاب، وقد ظن البعض، أن له رسالة سياسية، لم يجد طريقه إلى النشر في «دار المعارف» في القاهرة، وفي سلسلة يشرف عليها طه حسين، إلا بشفاعة من الدكتور بنت، كبير المستشرقين اليهود في الجامعة العبرية، وذلك في رسالة سلّمها إلى الدكتور الحسيني، الذي أرسلها إلى الدار القاهرية التي نشرت كتابه[٣]. وقد برأت رسالة المستشرق اليهودي «الدجاجة الحكيمة» من تهمة المقاصد السياسية، لأنها لا تحمل أي «تجريح أو تلميح إلى اليهود»[٤].

إن كان اتهام الدكتور الحسيني في وطنيته أمراً بالغ الغلظة، فإن دفاع الدكتور عن

كتابه ليس بالغ الإقناع، رغم الصدق الأكيد الذي يرشح في الدفاع كله، وذلك لسبب يتجاوز، موضوعياً، الدكتور ودفاعه. فلكل نص، مهما كان لونه الكتابي، سياقه التاريخي الذي يضيئه، مثلما أن له بنيته الخاصة به، التي تشرحه، بعيداً عن مقاصد المؤلف والغاية المتوهّمة التي قصدها. يتعين القول المعطى بعنصرين متواشجين، يتفقان مع صاحب القول أو يتمردان عليه، والعنصران هما: سياق النص وبنية النص، أي: كتب الدكتور الحسيني نصاً أدبياً واخترع له سياقاً تاريخياً مختلفاً، لأن السياق الذي كان قائماً كان يفرض نصاً مختلفاً، يأخذ فيه التاريخ موقع علم الأخلاق. بل يمكن القول أيضاً: لقد اخترع الدكتور الحسيني نصاً أدبياً لسياق تاريخي لا وجود له، كما لو كان يعيش في زمن ويكتب نصاً لزمن مغاير قليل الإحتمال. غير أن انخلاع النص عن السياق، لا يردّ إلى وعي أخلاقي يخطئ معنى النص والسياق معاً، إلا بقدر ما يترجم أحوال وعي يخطئ معنى الأخلاق أيضاً. بهذا المعنى، يتكشّف معنى البلاغة التقليدية، التي تخلق عالماً وهمياً من الكلمات، من غير أن تجد الكلمات التي يحتاجها العالم الحقيقي. ولن يكون النص، الذي ارتاح الى المتوهَّم وجانَبَ الواقعي، إلا نصاً «بريئاً»، يخلط بين «التأمل الإجتماعي» والمواعظ الشاردة، وبين السرد الحديث والحكايات البسيطة، محوّلاً التأمل والسرد إلى ميلودراما قاصرة، يتوسّلها المضطهدون الذين لا يرون أسباب اضطهادهم.

كان الدكتور اسحاق، الوطني والصادق في وطنيته، صادقاً في تبرير الشكل الأدبي الذي ارتكن اليه. بيد أن القضية الجوهرية تقوم في «محتوى الشكل» لا في نوايا المؤلف، وهي نبيلة بالتأكيد. و«محتوى الشكل»، أو «بنية النص»، في حال الحسيني كما غيره، وشاية نزيهة بوعي المؤلف ومنظوره إلى العالم. والوعي الذي كتب النص، أو انكتب النص فيه، منسوج من عنصرين غير متكافئين، يحتقب الوعي الأخلاقي فيه، وهو العنصر المسيطر، وعياً مدرسياً، يؤمن بقوة الكلمة وبقداسة المكتوب. وفي رحاب الوعي الأخلاقي، وهي فعلياً ضيقة، يصاول خيرٌ لا يُرى شراً لا يمكن الالتقاء به. أما الوعي المدرسي، وقد آمن بما تقول به الكتب، فيكتفي برواية المعركة التي لا يجب خوضها، لأن مسار الشر هو مسار هزيمته. يصدر عن وحدة الوعيين قول بلاغي، يؤمن بقوة الكلمة المكتفية بذاتها، إذ الكلمة فعل، وإذ الفعل قائم في الكلمة، وإذ اتقان الفعل اتقان للكلمة التي تحل محله. شيء قريب من التعزيم القديم والجديد، الذي يعتقد اعتقاداً راسخاً أن كلمة العسل تساوي مذاق العسل، إن لم تكن أعذب طعماً.

الوعي المضطرب في زمن مضطرب:

«مذكرات دجاجة» نص واضح الكتابة وملتبس الهدف، كتبه متعلّم وطني في زمن

مضطرب، كي يقيه اضطراباً، لا يحسن الهروب منه. شيء قريب من أطروحات ماركس عن فيورباخ، حيث المؤمن الصادق يرسل بأفضل ما عنده إلى السماء، منتظراً أن تردّ السماء عليه بعطاء عميم. وسيحتفظ الدكتور الحسيني باضطرابه، بعد أن رمت به النكبة من القدس إلى حلب ومن الأخيرة إلى بيروت، حين وضع كتاباً ممتازاً، أقرب إلى الأُحجية، عنوانه «الإخوان المسلمون»، الصادر في بيروت عام ١٩٥٢[٥].

كتاب «الإخوان المسلمون – كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» ممتاز بالمعايير جميعها. فموثّق هو وبالغ التوثيق، متمنّع بالعمق والإحاطة، متكامل الوجوه دون نقصان، كأن الكتاب صورة عن البحث العلمي كما يجب أن يكون. ورصانة الكتاب، ولا مراء فيها، تجعله نقدياً، من وجهة نظر المؤلف، فيُثني حين يعتقد بضرورة الثناء، وينقد، حينما يأمره عقله بذلك. والكتاب، الذي يتعاطف مع موضوعه ناقداً وينقد متعاطفاً، واسع الأفق ورحب المنظور، بعيد عن التعصّب والأحكام الجاهزة، كما لو كان يبحث طليقاً عن أمر لا يراه غيره. مع ذلك، فإن قيمة الكتاب، وهي عالية، لا تحرّره من الإلتباس. والسؤال الذي يطرح مباشرة: ما الذي يجعل الدكتور الحسيني يقع، وبعد أربع سنوات عن رحيله الإجباري عن القدس، على موضوع «كبرى الحركات الإسلامية الحديثة»؟ وقد تكون الإجابة، ظاهرياً، متاحة وبسيطة، كأن يُقال: ما بذل الدكتور الحسيني جهداً جليلاً في عمله إلا لأنه كان يكتب عمّا يحب ويهوى، أي بسبب رباط سياسي بينه وبين «الحركة» التي يكتب عنها. غير أن الإجابة لا تلبث أن تترنّح، لأن الحسيني ينقد «الحركة» في أكثر من مكان، الأمر الذي لا يأتلف مع «الموقف النظري المتحزّب». وقد يُقال إن الدكتور، الذي درّس ست سنوات في الجامعة الأميركية في القاهرة قبل أن يرجع إلى القدس في عام ١٩٧٣، تناول بالبحث المعمّق حركة حسن البنا، لأنها أبلت في فلسطين بلاء حسناً في عام ١٩٤٨، كما يقرر الكتاب في أكثر من موضع. والإجابة الثانية تسقط بدورها في الماء، ذلك أن إشكالية الكتاب، وبالمعنى النظري للكلمة، تدور حول «ظاهرة سياسية»، نالت نجاحاً كبيراً في فترة من الزمن قصيرة، بسبب دقة التنظيم والاستجابة الفاعلة «لمتطلبات الواقع».

ويظل السؤال القريب من الأحجية قائماً: ما الذي يحمل أستاذاً جامعياً محترفاً، لم يعرف بأهوائه السياسية، على وضع كتاب يمتثل لقواعد «البحث الأكاديمي» قبل أي اعتبار آخر؟ يستدعي الكتاب، مرة أخرى، انخلاع السياق عن النص أو معارضة النص للسياق الذي كُتب فيه. فلو بدأ الكتاب بالسياق التاريخي، وقوامه «النكبة» أو ما دعاه الوعي البلاغي بذلك، لبرّر النص وجوده ولأعلن عن وظيفته. ولو أنتج النص في علاقاته الداخلية قولاً سياسياً واضحاً، أو إشكالاً نظرياً بيّناً، لعطفَ السياق عليه، أو حاور «السياق المنكوب»، ولو على مبعدة. لكن الكتاب، الجميل في بنائه، يرسل بالنص والسياق

إلى جهات متعارضة، تتجافى كلما تصالحت، وتتجانب كلما اقتربت. ولعل هذه المصالحة المستعصية تتكشّف عارية في غياب «مقدمة الكتاب» وكل ما يدل عليها، علماً أن موضوع الكتاب والزمن المحدّد الذي كُتب فيه يجعلان من «المقدمة»، التي تظهر أغراض الكتاب، ضرورة شفافة لها شكل البداهَة. فلا يوجد عالم لغوي ضليع، يهجر اللغة وشجون «ابن قتيبة»، ويذهب عميقاً في أحوال «كبرى الحركات الإسلامية الحديثة»، دون سبب ساقه مطمئناً إلى الموضوع الذي وقع عليه. غير أن الحسيني، الذي أعطى نصاً واضح الكتابة وملتبس الهدف في «مذكرات دجاجة»، آثر اللواذ بقاعدته الأكاديمية القديمة، التي تفك العلاقة بين الكتابة والتاريخ، فذهب واضحاً، مرة أخرى، إلى موضوع لا وضوح في جدواه ووظيفته. ولذلك ينفتح الكتاب مباشرة، وبعد صفحة واحدة تحمل عنوان الكتاب، على «الفصل الأول»، وعنوانه «ظروف نشأتهم»، أي «ظروف الإخوان» الذين كتب عنهم الحسيني مائتين وعشر صفحات.

يسمح كتاب الدكتور الحسيني، الذي التحق بمعهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة لندن في عام ١٩٢٩، بقراءة متعددة المستويات، تختزل كل مستوى إلى ذاك الذي يليه. يرتبط المستوى الأول بالأسباب الموضوعية التي ولّدت «الحركة» وبالأسباب الذاتية، التي أكدتها، وفي فترة قصيرة، قوة هائلة وفاعلة. فالحركة، التي ولدت في آذار عام ١٩٢٨ في مدينة الإسماعيلية، جاءت رداً إسلامياً على «مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية، ....، وعلى ما كان ينشر في بعض الجرائد من أمور تتنافى مع التعاليم الإسلامية، وعلى جهل العامة بأمور الدين». كان في السياق، الذي أطلق فيه البنّا دعوته، ما لا يُرضي «التعاليم الإسلامية» ولا ترضى عنه، بعد ظهور «مؤلفات أثارت الرأي العام المحافظ منها كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق الذي أدى إلى إخراجه من المحاكم الشرعية وحملة علماء الأزهر عليه، لدعوته الصريحة إلى وجوب فصل الدين عن الدولة وإنكار السلطة الزمنية للخلافة. ومنها كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، الذي شك فيما ورد في القرآن الكريم عن ابراهيم الخليل».... وتحوّلت الجامعة المصرية في هذه الفترة إلى معهد حكومي «وقرَّ في الذهن أنها لن تكون عَلمانية إلا إذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الإجتماعية المستمدة منه.... ص: ١٠». وكان على أصحاب «الدعوة الجديدة» أن يحملوا على ما يُضعف جسد الأمة ويوهن روحها، وأن يوحّدوا «صفوف المؤمنين» في حركة إسلامية مبرّأة من أمراض الغرب وأوزاره، بدءاً من بدعة «العلمانية» وصولاً إلى بدعة لا تقل عنها فساداً هي: «الأحزاب السياسية». ولهذا، بدا إتلاف الأحزاب شرطاً لا تقوم عزة الأمة من دونه، ومبتدأ لا نصرة للإسلام من غيره، ومنطلقاً لا يرتاح المؤمنون إلا به: «وأبعد ما ذهبوا إليه في المضمار السياسي الدعوة إلى

«القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصف واحد.... ص: ٢٤».

إن كان الإنحلال الذي يضرب جسد الأمة، كما البدع المتواطئة على الإسلام، هي التي أمدّت «الحركة» بأرض صلبة لا تميد، فإن علوّ شأنها وثبات أقدامها يعودان إلى صفات إيجابية أربع. وأول الصفات، كما يرى المؤلف، الشمول، إذ رأى الإخوان في الإسلام، كما قالوا، عقيدة روحية ودنيوية شاملة، فـ«الإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية وعمل ومصحف وسيف... ص: ١٤٥». والصفة الثانية هي «التنظيم الدقيق»، الذي يستلهم تاريخ «الحركات الإسلامية السرية»، ويستفيد «مما جدّ من حركات في الغرب». وصفتها الثالثة المميزة «الشعبية، أي العناية بالشعب بأساليب أقرب إلى الاشتراكية منها إلى أي مذهب آخر»، خاصة أن حسن البنا: «كان بارعاً في التوفيق بين مبادئ الإصلاح الإجتماعي التي وصلت إليها الأمم الغربية وبين مبادئ الدين... ص: ١٥٣». أما الصفة الأخيرة فهي «التفاعل مع البيئة بأحداثها المتعاقبة»، والتي تعني «مناهضة الإمبريالية على أساس ديني لا مدني فحسب»، و«نبذ الحزبية ووضع منهاج اشتراكي شامل يعالج جميع شؤون الدولة... ص: ١٥٨ – ١٥٩».

تعيّن القراءة، في مستواها الأول، ولادة حركة «الإخوان المسلمين» في أسبابها ووسائلها. غير أن جمع الجمل المتناثرة في الكتاب، والوقوف أمام الفصل الثالث: «حسن البنا – شخصيته»، يُحيلان على قراءة أكثر وضوحاً، ترى في فضائل الحركة مرآة صقيلة لفضائل مؤسسها، كما لو كان الحسيني يشتق روح حركة دينية من روح رجل موهوب كثير الطموح. فمؤسس الحركة، الذي ولد في عام ١٩٠٦ واغتيل بعد اثنين وأربعين عاماً، مجتهد ومتوقّد في اجتهاده، منظم وبالغ التنظيم، يحسن التحدث بيسر وإقناع، مرن العقل والقرار، يوحّد النظري والعملي..... . كل ذلك مع نزعة مركزية شاملة، يقرّها الآخرون ويقبلون بها، تؤكد «المرشد العام» مرجعاً لا مرجع فوقه.

يشتق الحسيني روح الحركة من فضائل مرشدها، بأسلوب تتسلل إليه حرارة ظاهرة في أكثر من مكان، توحي، أو تكاد، بأن تلميذ جب قريب من الحركة الدينية التي يكتب تاريخها، وأنه أكثر قرباً من مؤسسها، الذي أولع بمجاز الساعة، أي الدقة، وأخذه عن والده، «المعروف بالساعاتي»، الذي جعل ابنه يقول: «أبي الإسلام لا أباً لي سواه». غير أن الأكاديمي الفلسطيني، الذي كلما سار في اتجاه أثنى على اتجاه آخر، يزعزع ما يوحي به، حين ينقد الحركة في أكثر من مكان، ناسياً أنه ينقد الحركة التي رأى فيها مرآة لرجل موهوب لم يقتصد في الثناء عليه أبداً. يكتب الأكاديمي الذي راكم ألقاباً كثيرة: «لا شك في أن الإخوان لم يطالبوا بالحكومة الدينية عبثاً. لقد رأوا بعض القوانين في مصر تبيح

ما نهى عنه الدين. رأوا قانوناً يبيح الزنا وآخر يبيح الخمر، وهما محرّمان دينياً، .... وهذا هو موطن الدقة في الموضوع. هل جميع القوانين المدنية أدت الى ما أدى إليه هذان القانونان مثلاً؟ هل كل تشريع مدني فاسد؟ لو كان الأمر كذلك لكان التشريع الغربي، بل تشريع العالم أجمع – عدا القسم من العالم الإسلامي الذي يطبق التشريع الديني – فاسداً. وهو قول سخيف. فالتشريع يستوحي المصلحة العامة في كل الأمم قاطبة. والمصلحة العامة تلتقي مع الغرض الأسمى من الدين. ولا يجوز عقلاً أن يختلفا... ص: ١٦٥»، ثم يقول: «يضاف إلى ذلك أن القوانين ليست هي المسيطرة على الناس بل الناس هم المسيطرون على القوانين»، «فالقوانين – سواء دينية كانت أم مدنية – يعمل بعضها ولا يعمل بعضها الآخر، حسب حالة الأمة. فعندما تتثقف الأمة وترقى تستغني عن كثير من القوانين التي سُنَّت لها قبل أن تبلغ ذلك الدور.... ص: ١٦٥ – ١٦٦». مع ذلك، فإن النقد الجوهري يصوغه الحسيني بالتساؤلات التالية: «ولكن الواقع أن هناك ثلاثة أمور ستكون محكاً لثباتهم (الإخوان المسلمون)، وستؤثر إلى حد كبير في تقرير مصيرهم. الأول: رأيهم في الحكومة الدينية. والثاني: موقفهم من الحضارة الغربية. والثالث: موقفهم من اعتبار العنف وسيلة من وسائلهم. ص: ١٦٤».

من المفترض، نظرياً، أن تجيب السطور السابقة عن سؤال البداية: لماذا وضع اللغوي الفلسطيني كتاباً خارج اختصاصه؟ والدكتور الحسيني لا يجيب بشيء، ذلك أنه يمزج مقادير من السلب والإيجاب وينتهي إلى لا مكان. فلا يكتب الكاتب، منطقياً، كتاباً إلا ليهاجم قضية معينة أو يدافع عنها. فالنقد، موضوعياً، تحديد لموقع الناقد ولموقع المنقود، بشكل يوضح المسافة بينهما ويكشف عن ضرورتها. والدكتور الحسيني لن يسعى إلى تلك المسافة، بسبب لا تكافؤ المقادير بين النقد والثناء، بل يصل إلى مسافة ملتبسة جديدة، تتناكر فيها الأضداد، ملغية مسافة الوضوح المطلوبة. يخلق اللغوي الموهوب مسافة محسوبة بينه وبين موضوع دراسته، تضعه داخل الموضوع وخارجه في آن. إنه كاتب الإختصاص، الذي تنصره الخبرة واللغة، والذي بإمكانه أن يقنع الناس بالانتساب إلى حركة لا يودّ هو أن ينتسب إليها. يذهب الناس، وقد أقنعتهم الكتابة الرشيدة، إلى الموضوع الذي كتب اللغوي عنه، ويذهب اللغوي إلى كتاب جديد، لأن الطرق المختلفة التي شاءها تنتهي إلى كتابة الإختصاص. غير أن أسئلة الكتاب لا تنتهي إلا باستدعاء كتاب آخر، ظهر بعده بعامين، وعنوانه: «أزمة الفكر العربي».

اطمئنان الوعي في كتابة الاختصاص:

بعد عامين بالضبط من ظهور كتاب: «الإخوان المسلمون»، نشر الدكتور اسحاق، وعن

دار النشر ذاتها: «دار بيروت»، كتاباً جديداً، لا ينقص عنوانه الإيحاء هو: «أزمة الفكر العربي». والكتاب لا يحيل على سابقه، ولا يستكمل أسئلته وإجاباته، ولا يعمّق بعداً من أبعاده، إن لم يقطع معه، وفقاً لقواعد الأكاديمي وكتابة الإختصاص، كما لو كان اللغوي قد نسي الأرض الرطيبة التي سار فوقها، وانتقل إلى أرض جديدة، لا تجاور الأولى ولا تعرف عن أحوالها شيئاً[٦].

ومهما يكن احتفال الحسيني بموضوعه ولواذه منه في كتابه «الإخوان المسلمون»، فإن القراءة النزيهة، التي تحترم الكاتب وموضوعه، قادرة على استيلاد أطروحات ثلاث أساسية. تقول الأولى منها: إن الإسلام عقيدة شاملة تلبّي حاجات الروح والجسد والدين والدنيا والحياة والآخرة. وتقول الثانية: إن الإسلام هو الخيار الوحيد القادر على انتشال المسلمين من عثرتهم، على شرط أن يساير العصر الجديد المتوالد فيه، وأن ينفتح على الغرب ثقافة وحضارة وعلماً ومعرفة وتكنولوجيا. وفي الحالات جميعاً، يتكشّف الإسلام، في الخطاب الصريح والمضمر في آن، بديلاً عن كل ما عداه. لكن هذا الإسلام، وهنا الأطروحة الثالثة، لا يلعب دوره إلا بضمان على صورته، آيته «الإخوان المسلمون». والأمر الأخير هو الذي يجعل الحسيني يطرق باب أحمد حسن الزيات، ليستعير منه ما يثني به على حركة حسن البنا ثناء كاملاً، دون أن يلزم ذاته، أي الحسيني، بشيء.

يتميّز الكتاب الجديد عن سابقه بمقدمة مقدارها خمس صفحات، ترى أزمة موضوعية قابلة للتجاوز، مصدرها الأول، دخول العالم العربي، أو بعضه، إلى طور تحرّر جديد، ومنبعها الثاني الإقبال على التعلّم، الذي أسعف العقول على طرح أسئلة، لم تكن قادرة على طرحها في زمن سبق. والكتاب الجديد لا يختلف عن سابقه، على مستوى البحث العلمي، فهو يتعامل مع موضوع يعرفه حق المعرفة، ويحيط به إحاطة لامعة، إن لم يتضمن صفحات مشرقة وملاحظات لا ينقصها اللمعان. مع ذلك، فإن في الكتاب الجديد اختلافاً حاسماً عن سابقه: فموضوعه، أولاً، هو العروبة، التي يوزّعها الكتاب على عناوين مختلفة: أزمة الفكر العربي، ما العروبة؟ عروبة اللسان، الحروف العربية والحروف اللاتينية، ناحية من نواحي العقلية العربية، تعريب العرب. تتوزّع العروبة على فصول الكتاب الستة طاردة أي موضوع آخر. إضافة إلى ذلك، ينحسر موضوع الدين مساحة ومنظوراً معاً، فلا يُذكر إلا في جمل متفرّقة، وإن مرّ جاء ذكره كركن من أركان العروبة، وكعنصر لا تحتاجه «الأمم الراقية» بالضرورة. كأن العالم اللغوي الجليل اعتنق، خلال سنتين، منظوراً فكرياً جديداً، يحتل مكان المنظور الأول ويُقصيه، فالعروبة هي البدء، بعد أن كان الدين بوابة لكل البدايات. مع ذلك، فإن الإنتقال السريع من منظور إلى آخر يطرح سؤالاً شائكاً صعب الترويض هو: هل يكتب العالم اللغوي الجليل عن موضوع

يؤمن به، أم أنه يبرهن على قدرته على الكتابة، بحصافة كبرى، في المواضيع جميعها، مؤكداً فضيلة الإختصاص ومحاسن التقسيم التقني للعمل؟.

يبدأ الحسيني كتابه بالردّ على اجتهاد استشراقي، لا يعرف البراءة، يقول: «والأمة بالمعنى الحديث توجد في بقعتين فقط هما تركيا وإسرائيل. ص: ١٠». قبل أن يقدّم الأكاديمي الفلسطيني ردّه، فإنه يتأمل الواقع العربي والفكر الذي يدور فيه، راصداً أزمة خماسية الأبعاد، عناوينها: الحيرة، الإرتجال، فقدان العقلانية، فقدان الجرأة والحرية الفكرية، و«احترام سنن القدامى إلى حد التقديس»، التي «تردّد عبارة سحرية غامضة هي: لا يصلح هذا الزمن إلا ما صلح به أوله». ومع أن الشفاء من الأزمة قائم في التشخيص ذاته، فنقيض الإرتجال هو التخطيط المتبصّر، فإن الحسيني يميل إلى اقتراحين هما: الإلتفات إلى العلم والإعلاء من شأن العلماء القادرين على دراسة الأمراض الإجتماعية وتطبيبها، ومحاكاة الحضارة الحديثة، إذ «لا مفرّ من البدء حيث وصلت الأمم المتحضرة. ص: ٢٠»، مذكّراً، دون تمهيد نظري كبير، بما قال به طه حسين في كتابه الشهير: «مستقبل الثقافة في مصر».

بعد الإشارة إلى الأزمة التي تخترق الكيان العربي، والوقوف أمام روح العصر المبنية على الصناعة والتكنولوجيا وإدخال العلم المختص في مرافق الحياة العامة، يصل الحسيني إلى «العروبة»، موضوع كتابه، ويقرّر: «العروبة في رأينا ذات ثلاثة أركان: عروبة اللسان، وعروبة العقل، وعروبة القلب. وإسقاط ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة ويفسدها. ص: ٥٤». وعروبة اللسان هي الفصحى، فمن وطّد لغته الفصحى وطّد عروبته، ومن ارتاح إلى العاميّة أوهن عروبته، دون أن يدري. وعروبة العقل تأتي من التاريخ وتعود إليه، فهي «العروبة الواعية ذاتها وجماعتها بما لهم وما عليهم. هي الممتلئة إحساساً بالأحداث التاريخية الشاملة لحيوات الأمة السياسية والأدبية والأخلاقية والإجتماعية والعقلية.. ص: ٥٧».

ولا تختلف عروبة القلب عن عروبة العقل، ذلك أن «عروبي القلب هو الذي يؤمن إيماناً راسخاً بحق أمته بالحياة الحرة من الأغلال..... وهذا الإيمان لا يمكن أن يكون أصيلاً في نفسه إلا بعد أن يُلمّ بالعناصر الخالدة من التراث القديم.. ص: ٦٠».

يبدأ الحسيني كتابه بالردّ على اجتهاد استشراقي تعوزه البراءة، وينتهي إلى اجتهاد استشراقي آخر، لا تنقصه براءة معينة، هي: «براءة الأكاديميين». شيء قريب ممّا أخذه ألتوسير على «الأكاديميين» الذين لا يأخذون بمنظور الطبقة العاملة، لا لشيء إلا لأنهم أكاديميون لا أكثر. فعناصر العروبة الثلاثة، التي اقترحها «الأكاديمي الفلسطيني»، لا تبرهن على وجود العروبة بل على غيابها، ذلك أن ما يجتهد فيه يحوّل العروبة إلى

اختصاص أكاديمي، ويحوّل إحساس الإنسان العادي بالعروبة إلى مجرد احتمال. فإذا كانت العروبة لا تستوي إلا في كتاب معقّد، صفحاته الفصحى ومعرفة التاريخ الدقيقة والإلمام بـ«العناصر الخالدة من التراث القديم»، فمعنى ذلك أن الأميّ العربي لا علاقة له بالعروبة، وأن من حظي بتعليم أوليٍّ هو أوليٌّ في عروبته، وأن العروبة المتوسطة نصيب من تلقّى تعليماً متوسطاً. تنحسر بقعة العروبة وتتضاءل مكتفية بمن حاز على علم غزير ومن سهّلت له الحياة الظفر بألقاب علمية عالية. يقول غرامشي: «يقوم خطأ المثقف في الإعتقاد بأن المرء يمكن أن يعرف دون أن يفهم، ويقوم بشكل خاص في الإعتقاد بأنه يمكن أن يعرف دون أن يحسّ وأن يكون متحمّساً»، ذلك أنه لا يمكن ربط السياسة بالتاريخ دون عاطفة، «أي دون ذلك الرباط العاطفي بين المثقفين والشعب – الأمة»[٧].

يختصر الحسيني العروبة إلى المعرفة، ويجعل من «محو الأميّة» درجة من درجات الوعي القومي، ومن «التحصيل الأكاديمي» وعياً عروبياً خالصاً. وهو فيما يفعل يضع «عروبة الاختصاص» في مواجهة «عروبة الإحساس»، التي كوّنها التاريخ في العادات والتقاليد والأساطير ومنظور العالم وعلاقات القراءة والكتابة، مرتكنة إلى الفصحى كانت، أم طليقة ومنفتحة على شواغل الحياة. ولعل الإحتفال بـ«الإختصاص» الذي يجعل الكاتب يضع كتاباً موثّقاً وينساه بعد عامين، هو الذي يقترح على الدكتور الحسيني فصلاً بعنوان: «تعريب العرب»، أي نقلهم من طور «العروبة الشعبية» إلى طور «العروبة الأكاديمية». يقول الدكتور: «لقد كان الواجب يدعو أن يسبق إقامة البناء (بناء الوحدة العربية) درس عميق لحالة الشعوب العربية، وسبر مدى عربيتها، أو عروبتها – كما يقولون في مصطلحهم الحديث – كي يعرف إلى أي حد تتغلغل العروبة في نفوس أبنائها... وواقع الحال في البلاد العربية اليوم يثبت ثبوتاً قاطعاً أن عروبة العرب أشبه بالطلاء على سطح المدن وأقل حك يزيله ويبرز اللون الأصيل.... ص: ١١٤ – ١١٥».

يرفع الدكتور الحسيني راية الإختصاص وينشرها فوق الحقول جميعاً. فعلم اللغة اختصاص لا يردّ إلى السياسة، والكتابة في السياسة اختصاص يستدعي المعرفة ولا يتطلّب موقفاً سياسياً، والوعي العربي اختصاص، يحسنه من يحسن «سبر آماد العروبة»، كما لو كانت العروبة بئراً، يمكن قياس أعماقه واختبار تربته ودراسة الطبقات الجيولوجية التي يقوم فيها. غير أن ابن القدس، الذي تعلّم في لندن والقاهرة ومرّ على توبنجن، ينسى، ولأنه أكاديمي في زمن قلق، أمرين، أولهما: أن ارتقاء الوعي الاجتماعي، والوعي القومي جزء منه، يحيل على الفضاء الشعبي الديمقراطي لا على «محو الأمية»، لأن وعي الذات علاقة سياسية مرجعها الحوار المجتمعي المفتوح لا المؤسسات العلمية المغلقة. وثانيهما: أن حركات التحرّر العربية، أي مواجهة المستعمر بهوية تغاير هويته، قامت بها الجماهير، التي ينقصها «الإختصاص»، سواء كان ذلك فَي مصر عام ١٩١٩، أو

في سوريا عام ١٩٢٥، أو في فلسطين عام ١٩٣٦ – ١٩٣٩.

بعد الملاحظات القليلة السابقة، وهي ضرورية، نعود الى «فضيلة الإختصاص»، التي تكتب، بدقة كبرى، عن «كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» وتنسى، بعد سنتين، ما كتبته، منتقلة، بيسر كبير، إلى «عروبة جديدة»، لا تستقيم من دون سبر أغوار الأمة بأدوات تنتمي إلى «عصر الآلة». ربما يكون المنفى قد رمى على العالم الجليل بضلال لم يشأه، وربما تكون القدس، وقد تناءت، قد حجبت عن المتعلّم الكبير شيئاً من الرؤية، وربما تكون رومانسية المعرفة في «زمن الآلة» قد ألقت بالأديب اللغوي إلى شاطئ غريب. كل ذلك جائز ويهدم الأحكام المستقرّة، دون أن يمحو ما جاء في الكتب، فما تحتضنه الكتب لا يُمحى. يقول الدكتور الحسيني: «لا يزال العرب مختلفين في نوع الدولة التي يجب أن تضطلع بمسؤولية الحكم. وهناك ثلاثة اتجاهات متباينة متصارعة: الأول يدعو إلى الحكومة الدينية.... والثاني يدعو إلى الحكومة الطائفية.... والثالث يدعو إلى الحكومة العلمانية التي تستمد سلطتها من صميم المصلحة العامة المتطورة بتطور الشعب، والتي تساوي بين جميع المواطنين مساواة تامة في الحقوق والواجبات. وهذا النوع الأخير هو الذي اختاره معظم سكان العالم في الشرق والغرب، بعد تجارب مريرة، ومحن أليمة حلّت بالأفراد والجماعات التي تتكوّن منها الدول. ص: ٢٢». يعطي الدكتور الحسيني، الذي ارتاح إلى أحمد حسن الزيات وهو يعدّد فضائل «الإخوان المسلمين»، موقفاً واضحاً من الحكومة العلمانية، ينصرها ويعضدها ويدافع عنها ويجلو حقيقتها لمن التبست عليهم الأمور: «وقد أساء الناس في بلادنا فهم المقصود من الحكومة العلمانية، وحسبوها حكومة لادينية تناهض الدين وتقوّض دعائمه. وليس هذا بصحيح. فالدلالة اللغوية والتاريخية تشير إلى أنها حكومة عصرية تقصد أمرين: الأول العدالة المطلقة والمساواة التامة بين جميع الأفراد.... والثاني الأخذ بالتشريع المدني الذي يستند إلى ما توصّلت إليه العلوم الحديثة في معالجة شؤون المجتمع المادية والمعنوية، والذي يتكيّف حسب المراحل المتطورة التي تجتازها الشعوب. ص: ٢٢». بل أن الحسيني، الذي يشتق، وَهْماً، الحكومة العصرية من العلوم الحديثة، ينتقل خطوة حاسمة إلى الأمام، حين يرى في العلم بديلاً عن الدين وفي الدين مدخلاً إلى التفرقة: «لا ينكر أن جزءاً كبيراً من العالم الغربي لم يعن بالعقائد الدينية ولم يعتبرها ركناً من أركان المجتمع. وهو اتجاه له ما يبرّره في البيئات الراقية التي سدّ فيها العلم مسدّ الدين إلى حدّ ما... ص١٢١». وتظهر هذه الجمل واضحة في معناها، إذا عُطفت على جملة سابقة تقول: «ولا مفرّ من البدء حيث وصلت الأمم المتحضرة. ص: ٢٠». لَا غرابة إذن أن يصل الدكتور اسحاق إلى السطور اللاحقة: «واقع الحال أن الدين في الشرق العربي وسيلة من وسائل التفرقة، ومظهر من

مظاهر التفسّخ والإنحلال، لا من حيث هو دين صحيح، ولكن من حيث هو مجموع معتقدات وآراء أضافها المتأخرون عن عصبية أو جهل أو سوء فهم.. ص: ١٢٠». لا يختلف وضع الدين، في التصور الأكاديمي، عن وضع العروبة، فهو محتاج بدوره إلى من «يسبر أغواره» ويرسيه على أسس ثابتة. وهو ما لا يميل إليه الدكتور، ولا يروق له، ولا يهجس به، لأن «الأمم المتحضرة» ارتكنت إلى «علم» يسدّ مسدّ الدين ويجابه «مظاهر التفسّخ والإنحلال».

لا يقول الدكتور الحسيني في كتابه اللاحق ما قال به في كتابه السابق، مطلقاً ما ينطوي على السؤال والأحجية في آن. فالأمر غريب إن طرد موقفه اللاحق، وبعد سنتين، موقفه السابق، والأمر أكثر غرابة إن كان الموضوعان معاً مجرد كتابة يمليها الإختصاص. فلا أحد يكتب لمجرد الكتابة أو للإحتفال بمهارة الإختصاص. وآية ذلك طه حسين، الذي دافع عن العقل وهو يتأمل «الشعر الجاهلي»، ودعا إلى نظام عقلاني في «مستقبل الثقافة في مصر»، ومارس قراءة عقلانية في «إسلامياته»، حين أراد أن «يُخْرِج الرجعيين من جحورهم»، كما قال في آخر مقابلة له مع غالي شكري. أما الحسيني، الفلسطيني المنفي المحاصر بزمن قلق، فيفعل شيئاً مختلفاً، يقلّه من زمن إلى آخر، كأن يكشف، بصدق كبير، عن براعة حسن البنا، الذي خاصم أتباعه ما جاء به طه حسين، ثم يعود، وبصدق موازٍ، لينصر «الحكومة العلمانية»، التي كانت وجهاً من وجوه المشروع الوطني الكبير، الذيً حلم به عميد الأدب العربي.

ينزاح الدكتور الحسيني من موقع إلى آخر، محتفظاً بعنصر لا ينزاح عنه أبداً، هو: التصور التقني للعالم. يتكون كتابه الأول، أي «مذكرات دجاجة»، من تمازج الوعي الأخلاقي والوعي التقني، فيرسل الأول الهداية إلى بشر لا يراهم، ويتعيّن الوعي الثاني بكتابة تعرف جديد اللغة وقديمها. ويظل الوعي التقني حاضراً في كتاب «الإخوان المسلمون»، بعد أن تصاهر الوعي الديني والوعي الأخلاقي، وقد تجلّى، على المستوى الخارجي، في تقسيم الكتاب ودقة بنائه، وعلى المستوى الداخلي، بتأكيد الشمول والدقة والتنظيم ومجاز الساعة كصفات للموضوع الذي يكتب عنه. أما في الكتاب الثالث: «أزمة الفكر العربي»، فإن الوعي التقني يكتسح أشكال الوعي الأخرى. يقول الحسيني في الكتاب الأخير: «وقد تبدو الظواهر الأخلاقية في غاية السوء، ومؤدّية إلى أوخم العواقب في حياة الأمة، فيتوهّم الباحثون أنها علة العلل.... والحال أن هذه الظواهر تزيد في سوء الأوضاع السيئة بذاتها. واعتبارها علة العلل يضلّل المصلحين. وقد ظنها كذلك بعض الدينيين والأخلاقيين، وحاولوا أن يعالجوها بالوعظ والإرشاد وحدهما فلم يفلحوا. وخالفهم في ذلك العقلانيون ورأوا العلة الحقيقية تكمن في طبيعة الحياة نفسها، في

نظمها الاقتصادية والسياسية والإجتماعية التي تقوم عليها. ص: ٣٣». بعد عشر سنوات وقليل، وبعد أن عَبَرَت النكبة فوق أطلال قرى فلسطينية كثيرة، أقلع الدكتور الحسيني عن «الوعظ والإرشاد»، الذي ملأ به كتابه الأول، وارتاح إلى معرفة مجردة، تضيق بنصائح «الأخلاقيين».

كتابة الكتب وكتابة الإحساس:

ربما يكون «قضايا عربية معاصرة» آخر كتب الدكتور الحسيني. ويتضمن الكتاب، وهو جملة دراسات ومحاضرات متفرقة، على أربعة بحوث ترتبط كلياً بفلسطين والقدس، وهي: «أسماء بيت المقدس، أسماء فلسطين، «جامعة» المسجد الأقصى، فضائل بيت المقدس». والبحوث الأربعة تقبل القراءة على مستويين هما: مستوى الذات ومستوى المنهج. يعبّر المستوى الأول، الذي لا يكذّب صاحبه، عن تعلّق اللغوي الشيخ بأرضه وعن محبته لوطن لم يفارقه أبداً. ولهذا يبدأ الشيخ الوطني محاضرته عن «أسماء بيت المقدس» بالسطور التالية: «إني لأعلم أن المجمع لا يخوض في بحر السياسة، ولذا فإني أقف على ساحل هذا البحر الغدار دون أن أجرؤ على الدنوّ منه. وإن ندّت كلمة هنا أو هناك فإنها أشبه بالرذاذ الذي يتساقط دون أن يؤذي أحداً. ولكني لا أستطيع أن أكتم شعوري نحو مدينتي المقدسة. وإنه ليطيب لي أن أردّد ذكرها صباح مساء، وأن أسبِّح بحمدها، وأن أصف محاسنها... ص: ٨٩». ليس في ما يقوله الشيخ، على المستوى الذاتي، ما يجافي الحقيقة وما يجانب الصواب، فمدينته المقدسة تسكنه وإن سكن غيرها. لكنه وهو يعالج موضوع المدينة التي تسكنه، يظل مسكوناً بمنهج الإختصاص، الذي يدرس الظاهرة المكتفية بعلاقاتها الداخلية، التي تستدعي قاموساً إثر آخر، ولا ترتاح إلى ما لا تقول به القواميس. ولهذا، يكون بإمكان الأستاذ اللغوي أن يقبض على الأسماء كلها، دون أن يُثبت حقيقة أو يدحض أخرى، لا لشيء، إلا لأن منهج الإختصاص الأكاديمي، الذي تشبّع به، لا يسمح له بذلك. ويكون، بداهة، في المنهج المذكور، أن يهرب الأكاديمي الأديب من «البحر الغدّار»، أي السياسة، بقدر ما يهرب «البحر»، من منهج أكاديمي، يحتفل بـ «المقولات العلمية» ولا يستدعي البشر[٨].

يقول الحسيني في كتابه: «أزمة الفكر العربي»: «يضاف إلى ذلك أن الجمهرة في الشعوب العربية معظمها أميّة لا تقرأ ولا تكتب. فهي إذن محرومة من أقوى الروابط التي يعتمد عليها السياسيون في إقامة بنائهم. ص: ١١٨». إن عطفنا هذا القول على معنى «العروبة»، وقوامها «عروبة اللسان وعروبة العقل وعروبة القلب»، كما يؤكد الأستاذ باطمئنان كبير، ظهرت حقيقة موجعة ترمي بـ «الجمهرة الأمية» إلى ما وراء العروبة

وإلى خلف البناء الذي يطمح إليه السياسيون. يرى الدكتور العلم، ولا يتعرّف على جذوره الإجتماعية، وإن تعرّف، وبدرجة أقل، على وظائفه الإجتماعية، فتكون السياسة علماً محضاً والقومية معرفة صافية والوطنية اختصاص من اختص بالعلم والمعرفة. والدكتور، في عواطفه الصادقة ونواياه النبيلة، يخلط، شأن غيره من الأكاديميين الهاربين من «البحر الغدّار»، بين التعلّم ومحاربة الأمية، بعد أن رأى في العلم الخالص مرجعاً للحقيقة. وواقع الأمر، وكما يدلّل الواقع العربي اليوم، أن محاربة الأميّة، وفي شروط معينة، درب إلى أميّة أشد سواداً وأكثر خطراً، ذلك أن المطلوب تعلّم الإنسان، أي إطلاق ذاتيته الحرة، لا محاربة أميته، أي تعليمه أصول القراءة والكتابة فقط. والأمر الأخير فطن إليه خليل السكاكيني، منذ زمن طويل، دون أن يسمع بكلمات غرامشي الجميلة: «كل البشر فلاسفة.... وكل البشر مربّون»، أي أن كل البشر تلاميذ وأساتذة في آن.

إن فلسفة الإختصاص الأكاديمي، التي ترى في المراتب الإجتماعية ضرورة مطلقة، وفي الظواهر الإجتماعية علاقات منفصلة وغير متفاعلة، هي التي أمْلَت على الحسيني، أن يوحّد بين التأهيل العلمي والوعي القومي وبين محاربة الأمية والممارسة الوطنية، أي أملت عليه تأويل العلاقات كلها بشكل خاطئ. وتأويل الوطنية، كما محو الأمية، بشكل ساذج وخطير في سذاجته، دفع بالأستاذ الفلسطيني، المتنقل بين جامعات مختلفة، إلى أن يكتب في «الإخوان المسلمون» السطور التالية: «كما سبق أن اشترك الإخوان في جهاد الفلسطينيين في اضطرابات ١٩٣٦ – ١٩٣٩.... ص: ١٣١». تلبّي كلمة «اضطرابات» وعياً أكاديمياً سقيماً، يتأمل البشر ولا يكون معهم، ويقيس فضائلهم الإنسانية بمسطرة ميّتة، حدودها الجهل والمعرفة، إن لم تكن حدودها، وبشكل أدق، «العالم» – المرتبة و«الجاهل» المجهول. فـ«الإضطرابات»، التي يذكرها الأكاديمي في كتاب جبّهَ ما بعده وجبّت «الذاكرة القلقة» الكتابين معاً، هي تلك لثورة الوطنية الكبيرة، التي أشعلت النار في قلب السكاكيني، وهو يتابعها يوماً بعد يوم، وألهمت غسان كنفاني دراسة وطنية ممتازة، وجعلت محمد حسنين هيكل يشير، بالأرقام، إلى تضحيات الشعب الفلسطيني الكبيرة، قياساً بعدده الصغير. غير أن الدكتور الحسيني معذور في أكاديميته الساذجة، طالما أن الألوف التي سقطت في سبيل الوطن في «الإضطرابات» المذكورة، تنتمي إلى «الجمهرة» الجاهلة، التي لا تعرف «فضائل المستشرقين». يكتب الدكتور عبد الرحمن الكيالي في كتابه: «الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين: «كانت نسبة الأمية في الشعب الفلسطيني سنة ١٩٢٠ نحو ٢٥ر٨٦٪، وفي آخر الانتداب انخفضت إلى نحو ٧٠٪ لكن نسبتها في القرى لدى الطبقات الفقيرة بقيت عالية جداً، أما انخفاضها المحسوس فكان لدى الأوساط المسيحية، ولدى الطبقات الوسطى في المدن فحسب»[٩]. ترمي نسبة الأمية العالية بـ

«الجمهرة» الفلسطينية إلى سديم «الإضطرابات»، فلا يتبين الأكاديمي من أحوالها شيئاً، وتغدو الرؤية أكثر صعوبة، لأن ٩٣٪، كما يذكر كنفاني، من الذين شاركوا في «الإضطرابات»، كانوا من الفلاحين، الذين يعانون من الأمية، ويعانون أكثر من «أعيان» الثقافة والسياسة في آن[١٠].

وواقع الأمر أن الأستاذ الفلسطيني الذي يرمي بـ«الجمهرة الجاهلة» خارج حدود القومية والوطنية، لأنه لا يعرف معنى العلاقة بين السياسة والتاريخ، يرمي، بدوره، بـ«اليهودي» إلى فضاء ملتبس، يختلط فيه الوعي الأخلاقي القاصر بوعي أكاديمي أكثر قصوراً. يقول في «أزمة الفكر العربي»: «إن عدم دخول اليهود في العروبة، مع تكلمّهم العربية، أمر يتعلق بالعقلية اليهودية والمزاج اليهودي. فاليهود – في كل مكان لا في بلاد العرب وحدها – يصعب انصهارهم في البيئة التي يعيشون فيها. ودينهم وتاريخهم يحتّمان عليهم أن يعتبروا أنفسهم شعب الله المختار. وطبيعة الحياة التي يحيونها تحتّم عليهم أن يكونوا دون الشعوب المتميزة بأخلاقها ومثلها العليا.... ص: ١١». يقع الأكاديمي الفلسطيني، الذي يطمح إلى تحرير الفكر العربي من أزمته، في خطأ مزدوج، يؤيّد الفكر الصهيوني، وهو يتوهّم أنه يواجهه. فهو يبدأ بفكرة «الجوهر» المثالية، التي يُقبل عليها سعيداً كل فكر غير تاريخي. ولذلك، فإن الوجود اليهودي، وقد تجوهر، مختلف عن غيره ومغاير لما ليس هو، له عقلية تلازم اليهود ولا تقبل بغيرهم، وله مزاج ثابت ومستقر وقار، مزاج هارب من التاريخ، «يحتّم» على اليهود الإكتفاء السعيد بمملكة يهودية خالصة، «تحتّم» عليها يهوديتها الخالصة، أن لا تحاور البشر وأن لا تأتلف معهم. يُكمل الأكاديمي الفلسطيني أطروحته، وهي أطروحة ساذجة، بأطروحة ساذجة هي الأخرى، تضع اليهود، أخلاقياً، في فضاء هجين مغترب عن «المثل العليا». يصل الدكتور الحسيني، الذي يطالب بـ«إقامة المستقبل العربي على أسس علمية»، إلى ما لا يجب الوصول إليه، فمقولة الجوهر لا تشرح شيئاً، إلا الفكر الصهيوني ومن وجهة نظر صهيونية، في حين يمثّل «الضعف الأخلاقي»، المنسوب إلى «الجوهر اليهودي»، إساءة إلى العلم والتاريخ و«المثل العليا» معاً.

وإضافة إلى الوجود اليهودي، الذي تَجَوْهر، و«الضعف الأخلاقي» المحايث لجوهر مستعص على التغيّر، يستمر الدكتور الحسيني في حديث يصادر أوله آخره، حين يكتب: «وأما أن إسرائيل أمة بالمعنى الحديث، دون أمة العرب، فأقل ما يقال فيه أنه حكم سابق لأوانه. ولا ننكر أن اليهود يحاولون تكوين أمة حديثة، ولكن الصعاب التي يواجهونها كثيرة... ص: ١٤». ومع أن الدكتور الحسيني لا يذكر «المصاعب الكثيرة» التي تحول دون وقوف «الأمة الحديثة»، فإن «تفاؤله» المضمر لا وظيفة له، بسبب مقولة الجوهر

السابقة، التي تجعل «الأمة الحديثة» قائمة قبل قيامها وقبل الزمن الحديث، طالما أن الوجود اليهودي جوهراني، ولا أثر للزمن عليه.

يحرّض مسار الدكتور الحسيني، الذي جمع ألقاباً وشهادات عديدة، على التمييز بين كتابة الكتب وكتابة الإحساس. والكتابة الأولى تقول ما قاله غيرها وتبحث عن جذور الكلمات، كما لو كان اكتشاف الجذر اللغوي السليم للكلمات تجسيداً لمواضيع الكلمات وهندسة للحقيقة، على خلاف الكتابة الأخرى، التي تحاور المعرفة المفتوحة وهي تحاور هواجس البشر وطموحاتهم. وهذا الخلاف بين الكتابتين، وفي علاقته بـ «إضطرابات» ١٩٣٦ – ١٩٣٩، يضع، دون تعقيد كبير، الشاعر، الذي لا ألقاب له، في مواجهة الأكاديمي اللامع، الذي ينوء تحت ألقابه. فتاريخ فلسطين، أدبياً، وقبل «النكبة»، يتكشّف شفافاً في أبي سلمى، وهو ينشد «انشر على لهيب القصيد»، وفي ابراهيم طوقان يحدّث عن «الثلاثاء الحمراء»، وفي عبد الرحيم محمود الباحث عن موت «يغيظ العدا»، وأشعار مطلق عبد الخالق الذاهبة إلى «الشقي الوطني»، الذي قاتل واستشهد، وهو لا يعرف القراءة والكتابة.

كتب الحسيني «مذكرات دجاجته» بأسلوب رائق يحقق «عروبة اللسان». لكن «عروبة اللسان» لم تمنح «الدجاجة» الحكمة المنتظرة، فبدت حكيمة لمن يطرب إلى إيقاع الكلمات، وبدت بلا حكمة لأناس آخرين. ولذلك، لم يكن بإمكان «الدجاجة» أن ترتفع إلى مستوى «الشهيد عوض الثائر»، الذي حلّق في «زمن الإضطرابات»، دون أن يعرف «عروبة اللسان». فقاتل وسُجن وكتب في سجنه، قبل الإعدام، قصيدة بـ «اللغة العامية»، التي تتمرد على «قوانين العروبة»، التي اقترحها اسحاق موسى الحسيني[١١].

ربما آثر الدكتور الحسيني، وهو يعيش زمناً مضطرباً ومتجدّد الإضطراب، الإنكفاء على ذاته وتأمل العالم، على ضوء ذاتية ترى طموحاتها ولا ترى العالم. فاجتهد في بناء هذه الذاتية واجتهد أكثر في عزلها عن التاريخ والسياسة والبشر، معتقداً، وصارماً في اعتقاده، أن العلم البارد يصون الذاتية ويقيها مخاطر عالم مضطرب. وفي هذا المنظور، الذي يشتق البشر من العلم ويوزّعهم على مراتب متعددة، تعانق الذات ما تصبو إليه، وتذهب إلى ما اختارته سعيدة، تنهل المعرفة نهلاً وتعبّ عبّاً وتروي ذاتها من القواميس رواءً لا مزيد عليه.

قال سارتر مرة: «إن كل الثقافة لا تساوي شيئاً أمام صرخة طفل يتضوّر من الجوع».

إشارات:

١ – اسحق موسى الحسيني: علم المشرقيات في انكلترا. القدس، المطبعة التجارية، ١٩٤٠، ص: ١٦.

٢ – اسحاق موسى الحسيني: مذكرات دجاجة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٥٣، ص: ٧.

٣ – مجلة الشراع، العدد ٤١، السنة الرابعة، تموز ١٩٨٢.

٤ – اعتمدنا في هذه الإشارة، وفي كثير غيرها، إلى رسالة الماجستير، التي تقدّمت بها السيدة جميلة عبد الفتاح أبو لبن، وتحت إشراف الدكتور عبد الرحمن ياغي، إلى كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية، وذلك في عام ١٩٨٧. فللسيدة المذكورة كل الاحترام والتقدير.

٥ – اسحاق موسى الحسيني: الإخوان المسلمون، بيروت، دار بيروت، ١٩٥٢.

٦ – اسحاق موسى الحسيني: أزمة الفكر العربي، بيروت، دار بيروت، ١٩٥٤.

٧– Gramscidans le texte, Editions Sociales, Paris, 1975, P: 302.

٨ – اسحق موسى الحسيني: قضايا عربية معاصرة، دار القدس، بيروت، ١٩٧٨.

٩ – الدكتور عبد الرحمن الكيالي: الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص: ٤٣.

١٠ – غسان كنفاني: ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩، منشورات الهدف، ١٩٨٨، ص: ٦١.

١١ – الدكتور عبد الرحمن الكيالي، ص: ١٤٥.